الجزء ٧ — الحقوق — السنة ٢

ايلول ١٩٢٥ — الوطن — صفر ربيع ١٣٤٤

الموضوعات الحقوقية

شعوب البحر المتوسط ومدنيتهم

الحقوق في سوريا

وهي صورة الخاصرة العبسة التي القاها زميلنا الفاضل المحامي الشاب كميل افندي
اده مدير مجلة المحاكم السورية الشهرية في ندوي جمعية خريجي المدارس
العالية القدماء السورية في القاهرة

«شعوب الحقوق»

لن تعود سورية الى سابق مجدها ما دامت الا اذا استردت حقوقها في الدرجة الاولى اما اصلاح طرق الري فيها والاكثار من غرس الاشجار زيادة الامطار فهي ثانوية وقد قال مونتسكيو ان خصب التربة لا يوصل البلاد الى اوج الحضارة كما الى الانحطاط من الحرية.

من المعلوم ان الحرية لا تدرك بدون العدالة التي هي اكبر عامل في صيانتها فاذا امتد ظل العدالة وتمتع به الجميع على السواء فلا يعود مجال البحث عن رقي البلاد الا من حيث عمرانها الهندسي وهكذا فانه ينظر للاراضي السورية المزروعة من وجهة تطبيق تلك العدالة فان خصبها وجدبها يتوقف على اعمال العدالة او تعطيلها. وقد قيل ان سهول سورية التي خرجت الحب بلا عناء او بقليل من الجهد كانت محصولاتها تكفي لتغذية خمسة عشر مليون نسمة اثناء عصرها الذهبي اي في عهد نزول الشرائع اما عندما انكمشت شمس العدالة وغاص ظل الشرائع صارت مواسمها الى الاضمحلال ولا حاجة بحربيا ورأل الخصب وتضاءلت

اسلامهم صحيحاً او غير صحيح بل له الظاهر الرسمي فقط . فالقبطي الذي يشهد اشهاداً شرعياً باسلامه يجب أن يعتبر مسلماً وتجري عليه احكام الشريعة الاسلامية فيما يتعلق باحواله الشخصية . فإذا ارتد الى النصرانية وجب اعتباره مسيحياً تجري عليه احكام الشريعة المسيحية ولا يعترض هنا بأنه بحسب أحكام الشريعة الاسلامية إذا ارتد عن الاسلام يقتل لأن القرمانات نصت على حرية الاديان وكذا جرت التقاليد العصرية على اعتبار حرية الاديان من النظام العام . ثم جاء الدستور المصري الذي صدر اخيراً واعلن في المادة (١٢) منه حرية الاعتقاد بطريقة مطلقة .

***

حكم تاريخه ٢١ يونية سنة ١٩٢٣ .
حكم تمهيدي . جواز العدول عنه . تعذر تنفيذه .

القاعدة القانونية

١ — إذا صدر حكم تمهيدي من محكمة ابتدائية وايدته محكمة الاستئناف بضم تحقيقات جنائية لتنوير الدعوى ثم اتضح ان اوراق التحقيق أعدمت عملاً بالعادة الادارية الجارية في الاوراق القديمة وتعذر الاطلاع على التحقيقات الجنائية كان للقاضي أن يستعين بطريق اثبات أخرى لتنوير الدعوى . لأنه غير مقيد في الاصل بالحكم التمهيدي الذي اصدره ولا يوجد في القانون ما يمنعه من تكوين عقيدته من أدلة او قرائن أخرى مثل استجواب الخصوم والاعتماد على قرائن متعلقة بالدعوى ترجح كفة احد الطرفين .

٢ — ان ديوان الاوقاف الخصوصية الملكية يمثل جميع المستحقين وينوب عنهم في اقتضاء حقوقهم فله ان يطالب دائرة الخديوي السابق الذي كان ناظراً على الاوقاف الخصوصية الخديوية برد جميع المبالغ التي صرفت في غير وجوهها الشرعية والغير مستحقيها اضراراً بحقوق المستحقين . ومدير الاوقاف الخديوية الذي وقع هذا الخلل في عهد ادارته ووافق عليه بالقول او بالعمل وحصل بأمره او علمه و باطلاعه يكون مسئولا عنه ولا يجوز ان يقي مسئوليته على مرؤوسيه ولا على رئيسه الاعلى الذي تلقى الاوامر منه .

***

الذين كان لهما تأثير كبير عليها وهما مصر وكلدانيا فشعب الفينيقيون عقولهم وتزجوا في بوتقة واحدة مكونين من عنصرين مختلفين واصطبغوه الى درجة اصبح من الممكن تمييزه مطبوعاً بطابعهم وموسوماً بميسمهم الخاص . وقد كان ملاحي مدينة صور الفضل الاكبر في نقل فضائل الفينيقيين وعوائدهم وديانتهم وجزء من خرافاتهم الى الشعوب التي عاشت على شواطئ البحر المتوسط . وقد لوحظ ان الحقوق الرومانية القديمة مثل شريعة الاثني عشر لوحاً كانت مقتبسة عن شريعتي اماسيس المصري وسولون اليوناني . وقيل ايضاً ان القانون التجاري الروماني لم يكن الا صورة مقلدة عن القانون الكلداني الذي وضعه منذ القرن الثلاثمائة سنة حمورابي ملك بابل حيث كان يعني بنقل الشرائع التي اذاعها سلفائه في الموضوعات المختلفة كقوانين البيوع والايجار والاستئجار والرهن والعائدة والتسليف . اما الفينيقيون فقد اخرجوا هذه القوانين من محابسها داخل الهياكل والمعابد وكان الكهنة يحرصون عليها ليرهبوا الجهلاء ويذيعوها في مستعمراتهم المنتشرة على شاطئ البحر المتوسط ويجعلوها اساساً يسيرون عليه في وضع مواثيقهم التجارية ويجردوها من النصوص الدينية لان تدخل الالهة في تعيين الشرائع شديد الخطر على الشعب الذي سلم امر اقرار العدالة في قضاياها ، لانها حتى الالهة المزعوم بلسان الكهنة ، ولكن القضاة عادلين مسئولين حتى لا تتمكن الاهواء من آراء نظام البشر ولا يتعرض القضاة الخائنين لنقمة الشعب . ان الوطن الذي تشكل كل مدينة منه امارة مستقلة وتنمو فيه البلدات الصغيرة تأليف الوطن الكبير حسب تعبير السير بيرد اوجب لكل مقاطعة تعيين قضاتها وحفق استقلتها الخصوصيين واضطر اصحاب السيادة ان درسوا طبائع الشعوب ان لا يفكروا في الزام احد في تعيين القضاة واتباع الشرائع ولا سيما في امة عرفوا انها مستعدة لفتح نحورها للآراء الصائبة والمدنيات الراقية وهذا تفاصيل كيف يصح ان يتساهل الفينيقيون فلا يثورون عندما يتعدى على كيانهم في حين انهم احترموا دائماً الكيان الوطني للشعوب التي استعمروها .

تلك كانت حقيقة التشريع الشرقي في هاتيك الايام الغابرة . من ذلك عقد صوري الشمال المقترن بالحيثيين مع رعمسيس الثاني ملك مصر اقدم معاهدة صلح عرفها التاريخ حتى قبل المسيح بثلاثة عشر قرناً . وقد تضمنت فضلاً عن القواعد الاولى لاصول المعاملات الدولية ما روي كيفية تسليم المجرمين واللاجئين الغير سياسيين للدولة التي وقع الاعتداء او الجرم في اراضيها ونصوص المعاهدة منقوشة على لوحة فضية ومشترط فيها انه يجب على الجيش الحيثي والمصري ان يحافظا على صلح دائم واتحاد متين برعاية وحماية الهة الشعبين الذين قالت عنهم انهم مستعدين ان يتقاسموا الند النقمة ويلجموا من يحاول ابطال المعاهدة

الانية وتحرث معاصر الزيتون والكروم ولم يبق من المزارع التي عناتها الاعاب واكتنفتها الاشجار المثمرة سوى تلك الابنية العليقة العمياء بعدان تداعت العمارات الفنية وعشيها الخراب واكتسحت رمال الصحراء تلك البلاد التي كانت مستودعاً لاغراء الدولة اليونانية من جهاتها المختلفة .

اما لبنان ذلك الجبل الاشم المنيع الذي استعصى على الفاتحين فقد فتت سكانه الجبليون الاشاوس صخوره وفرشوها في سفوح التلال وانشأوا منها رياضاً غناء تسر الناظرين ، في حين اجدب الاستبداد البقاع السورية وحول سهولها الخصبة الى صحارى مجدبة قاحلة .

ان سوريا مهد الديانات السماوية العظيمة ومهبط الشرائع السالفة ومهبط الوحي والالهام ومنبت الاراء الدينية والمدنية والادبية . واذا كان بعض المؤرخين لا يسلمون بشهادة الاساطير القائلة بأن القمح كان مجهولاً لدى باقي الامم وانبت بغتة الطبيعية في بلادنا اولاً التي سميت بلاد الخير ، واذا كان البعض الاخر منهم يروي بتحفظ تلك الحكاية الخرافية عن الاعناب وانها نبتت في الاصل في مدينة صور وتناول العالم من ايدينا عناقيدها الاولى ، فان الناس جميعهم يفترضون مع المؤرخين اليونانيين القدماء ان فينيقيا هي التي حملت اليونان تتدارج نحو الرقي وتترشح لاقتباس الحضارة واخذ اساليب التعليم الكلداني والمصري بعد ان نقلت اليها مبادي اصلاح الخير وعلمها احرف الهجاء فنبتتها في نفوسها على الواح الصلصال وصفائح المعدن .

ولا شك ان الدولة اليونانية وحكومة رومية تليدتها قد اخذتا تحسنان بذكر على الشرائع والعلوم التي اقتبستاها من الفينيقيين فاصبحت قاعدة للتشريع لدى الشعوب المتمدنة ولا يغرب عن البال اننا لم نتعاهد هذه الشرائع وتلك الحقوق . وقد نشر اثنان من علماء اوربا الاعلام وهما المسيو اوجين ريه فيو) استاذ الحقوق المصرية ومدير متحف اللوفر واخوه الدكتور (الدكتور ريه فيو) اعدة وثلاث مدعومة بوثائق المستندات قررا فيها ان التشريع الروماني مستقى من المصريين والكلدانيين والفينيقيين وتلاقى احدهما قائلا ان مجموعة الحقوق الرومانية لا يوجد فيها شيء روماني محض وهكذا ايضا نجد الاخوين بيدن مصطربين دائماً للتصريح بان التشريع الروماني في منشأه لم يكن من وضع الرومانيين بل من مقتبساتهم او بالحري نسخة طبق الاصل عن الحياة السامية العريقة في القدم ، فمن الصواب اذن ان نطلق على الحقوق الرومانية لقب تشريع البحر المتوسط لانها من صنع الشعوب التي عاشت على شواطئه وقد وضع الشرقيون مقدمة هذه الصنعة وخطوا اول خطوطها .

وصلت الشرائع والمبردات الاولى التي نقلها الفينيقيون الى اليونان الى فينيقيا من القطرين

نشأ في البلاد الفلسطينية والسورية من المملكة الرومانية الشرقية ابتداء من تولي قسطنطين الاكبر الملك، هو التشريع المسيحي مقرر نصرة الضعفاء والمساكين كالنساء والاولاد والعبيد ومانح الحرية الشخصية للافراد. وهكذا فقد انتفى الديانة المسيحية اكثر من ثلاثة قرون حتى تعرفت على التشريع الروماني ولكن كان يلزم للعدالة البشرية من الزمن حتى تدرك وتدرس ذلك الفصل الحقوقي الذي حينه الديانة وهو تلك القصة المشهورة التي انتهت بادانة السيد المسيح والحكم عليه من المحكمة العليا بقرار بيلاطوس. وهل كان ذلك الصليب الذي اثبت في اعلى الجلجلة كافياً لتفهيم الملك الذين تولوا مهمة الحكم على العالم الاستناد الى ما يسمونه عدالة الشرع؟ يفهم من هذا ان هناك حقيقة واحدة هي ان كل حكم يقصد به مصادرة الآراء يموء بالفشل ولا يستطيع ايقاف تدافع الفكر. ولا يخفى ان الديانة المسيحية هي وحدها التي اثرت في تشريع الامبراطورية من الوجهة الادارية حيث اعترفت من بعض الشرائع المصرية القديمة. ولا يخفى ايضاً ان القانون الروماني قد غير شيئاً من العوائد هناك. تظهر لنا احدى المعاهدات السورية الرومانية حالة القانون الروماني التي كان عليها في بلادنا في اواخر الجيل الرابع والعشرات التي اوجبتها العوائد المحلية. والاهمية التي تمشي عليها احداثاً تختلف عن الشرائع الرومانية من جهة افضلية الرجل على المرأة وجهة اقارب الاب عن اقارب الام مما لا يزال جارياً مجراه في بلادنا حتى اليوم. اخبرنا احد كهنة الكنيسة السورية ممن تعلموا الحقوق في مدرسة بيروت في اواخر القرن الخامس في نسخة من كتاب مخطوط باللغة السريانية، توجد فيه تفصيلات مفيدة عن ان تعليم الحقوق في تلك المدرسة، انه من جملة مقررات الاساتذة لطلبة الاحداث التمثيل الرسمي في وسط ادراج الملاعب المفتوحة والمعارضة والمرافعة. وذكر ايضاً انه كان محظوراً عليهم مطالعة كتب السحر والعرافة لكانت تصادر وتحرق امام محكمة العشراء. اما التشريع الاسلامي الذي تم في ظله العليا بواسطة الفاتحين العرب فقد احدث عهداً جديداً في سورية لانه يشمل من ذلك فضلاً عن الوصايا الدينية التي مازالت حقوق الافراد مقسمات من التشريع السوري الروماني ويتضمن في قسمه الجزائي بعض نصوص من الشريعة اليونانية. وكان للفتح العربي حفظة الشرع وهم اشبه بالقضاة عند الرومانيين اما وظائف الحكام فقد اسندت للقضاة.

لما تابع

***

في اخر سني عنده أي عائلته ورزقة والهم يبادرون الى مباركة من يحتفظ بها في محفظته وذريته من بعده ويتراءى لي ايها السادة اننا الآن في اشد الحاجة لوضع اساس لمثل هذا الاتحاد بين الشعبين الشقيقين السوري والمصري .

كما تحققنا في درس القانون الروماني وجدنا ان كل نظرية تضمنت فيه مأخوذة في الاصل عن الشرقيين وان رومه نفسها كانت واقعة تحت المؤثرات الفينيقية كما هو الحال بشقيقتها اليونان . وقد اشرت بين الرومانيين لمهد الشاعر (جونيال) العوائد الفينيقية حاملة الى النيل شر العاصي تمتزج مياهه بمياه نهر التيبر واتم تأثيرهم اشده على العوائد الرومانية والقانون الروماني ايام سلطة الامبراطرة السوريين من عائلة الصوارم هيليوغابالوس . سحر السكان حقوقهم الداخلية الكاملة وجعلوهم يتمتعون بمزايا كانت مقتصرة على الرومانيين . اصبح القانون الروماني شاملاً اهلية رعايا الامبراطورية جداء ان كان محتماً بسكان رومية وحدهم . كان ذلك في عهد النهضة ايام كانت الشرائع تعلم في مدينة بيروت وتلقن فيها ذلك بفضل دراية المشرعين الفينيقيين امثال « بابنيان » كبير « وول اولبيان » احد سكان مدينة صور وقد نال هؤلاء الفقهاء ، الذين تبوأوا اسمى المراكز في الامبراطورية ، الشهرة الواسعة بفضل افكارهم الاستقلالية وذهنيتهم العالية . لما قتل الامبراطور (كراكلا) اخاه جيتا شريكه في السلطة وذلك تقدم الى بابنيان وطلب اليه ان يدافع عنه امام مجلس الشيوخ الروماني ويبرر عمله تجاه الشعب فاجابه قائلاً : « ان تبرير الجرم اقل سهولة من ارتكابه » فاغاظ الامبراطور عليه وهدد دماغه القاضي بالقتل فما كان منه الا اجابته بقوله : انه لاهون على النفس البشرية ارتكاب الجرم ثانية بدلاً من زيادته الاعباء على المتحمل الاول » عندئذ امر كراكلا بقتله بعد ان عجز عن اقناعه . ولايسعنا هنا الا اظهار اعجابنا بمرونة كبير بن عاشوا في كل زمان ومكان بمن وقفوا ثابتين في وجه كل مستعطف قاتل حاول ان يستخرج ، بعد عن سبيل العدالة ، وصدوا عن كل حاكم او وزير ارادة كتمهم حدة الاغراض السياسية .

لقد رفض اولبيان الذي حنف بابنيان في مركز المحكمة والمشورة لدى الامبراطور اسكندر الفاتي ان يطأطأ الرأس ويمزج بين امياله وبين نظام الجندية فقم عليه الحرس الثائر وتجرأ على الاعتداء عليه ونفسه الامبراطور تحت رعايته الخاصة وشاع عليه رداءه الارجواني لان دراسة الرداء لاتسمح لاحد ان يقترب منه غير ان الحرس هجم واعلى ذات ليلة في القصر الامبراطوري نفسه واتزعه من بين ايدي مليكه وقتله . ان من اهم العوامل التي جعلت عمل القضاة الفينيقيين تاماً ورد القانون الروماني من صولته التشريع الجديد الذي